عرض الكتب

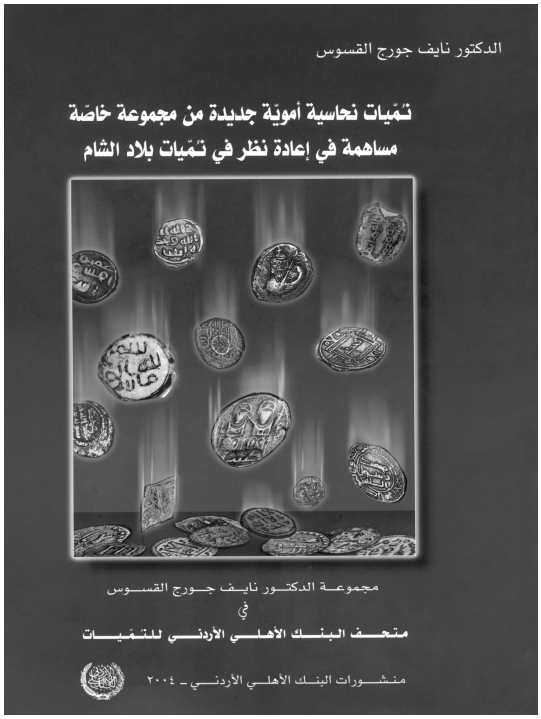

اسم الكتاب : نمّيات نحاسية أموية جديدة من مجموعة خاصة

المؤلف : د. نايف جورج قسوس

الناشر : البنك الاهلي الأردني ، عمّان

سنة النشر : ٢٠٠٤م .

رقم الإيداع : لدى دائرة المكتبة الوطنية - الأردن ٦١٧ / ٣ / ٢٠٠٤

مقاس الكتاب : ٢١× ٢٩,٥ سم .

عدد الصفحات: ٥٢٨ صفحة .

عرض : صالح خلف الحمارنه

يتكون الكتاب من أربعة أبواب، هي: الباب الأول: "التحولات الكبيرة في تأريخ الشرق الأدنى خلال القرن السابع الميلادي"، ويتألف من ثلاثة فصول؛ والباب الثاني: "نشأة المسكوكات العربية الإسلامية في بلاد الشام وتطورها"، وهذا الباب، ينقسم إلى أربعة فصول؛ والباب الثالث: "دار الضرب وما يجري فيها من أعمال"، ويتألف من فصلين فقط؛ أما الباب الرابع والأخير، فكان بعنوان: "المسكوكات النحاسية للإصلاح النقدي"، وهو يتالف من أربعة فصول.

كما يضم الكتاب عدداً من الخرائط، تبلغ ١٢ خريطة؛ منها ما يوضّح سورية كولاية رومانية، وأخرى لسوريه في الفترة البيزنطية، ثم خارطة لأجناد بلاد الشام، وأخرى ترسم بدقّة حدود جُنْدَيْ فلسطين والأردن، في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. يلي ذلك خريطتان، توضحان مدن الضرب في أجناد الشام.

وضمّن الباحث الكتاب جدولاً خاصاً بالأوزان الإسلامية، وزوَّدنا بدليلين: الأول لصور المسكوكات، التي جعل منها الباحث نماذج ايضاحية لما يقع في دار الضرب من أخطاء، وكان عدد هذه النماذج الإيضاحية ٨٧ نموذجاً. أما الدليل الثاني فهو الباب الرابع: فقد كان للمسكوكات التي لم يسبق نشرها، لا في كتاب "المتحف البريطاني" ولا في غيره - كما سيأتي- وقد صنفها المؤلف، حسب التسلسل التاريخي، وضمن فصول الباب الرابع، وكان عددها الإجمالي ٦٨٢، مسكوكة نحاسية جديدة؛ ما حدا بالمؤلف أن أطلق على الباب الرابع :"إضافات للمسكوكات النحاسية، في مصنّف ووكر، الخاص بالمسكوكات العربية البيزنطية ومسكوكات الإصلاح النقدي"؛ أي أن المسكوكات التي لم يرد ذكرها في مصنّف جون ووكر، الذي أصدره مجلس أمناء المتحف البريطاني، عام ١٩٥٦ م والموسوم ب (A CATALOGUE OF THE ARAB-BYZANTINE AND POST-REFORM UMAIYAD COINS, BY JOHN WALKER,LONDON 1956) . وتُعَدُّ هذه الإضافات للمسكوكات، إضافةً علمية كبيرة، وخدمةً لعلم المسكوكات، قام بها المؤلف الكريم، بجدارة.

هذا، وقد زوّد المؤلف الكتاب بالفهارس الضرورية، من

مثل: فهرس عام؛ وفهرس تعريفات، وغيرها.

في التمهيد للكتاب، تعريف بعلم النُّميات، وتنويه بأهميتها في دراسة التاريخ : وما ا لنُّميات في حقيقتها إلّا وثائق تاريخية، وسجل للدول حافل بالشعارات والصور والرموز. كما أن علم النُّميات علم عملي، لا يمكن دراسته، دون المسك بالقطع قيد الدراسة وتفحصها، ومعرفة أوزانها ونوع معدنها وما كتب عليها. لذا، لا يخلو علم ا لنُّميات من إثارة.

وفي الكتاب تمكّن المؤلف، بالمثابرة وحسن التثبّت، من حلّ رموز ست كلمات غير منقوطة وتصويبها، لم يُحسن غيره تفسيرها.

وبشكل خاص، قدّم المؤلف نقداً علمياً للمنهاج، الذي اتبعه ووكر، في مصنفه (الذي صدر عام ١٩٥٦)؛ فمثلاً على ذلك :

أ -استخدم ووكر مصطلح "عربي بيزنطي"، ليشير إلى المسكوكات ،التي ضُربت في الفترة ما بين الفتح الإسلامي لبلاد الشام وإصدار مسكوكات " الخليفة الواقف "، نظرا إلى شدة تأثرها بصفات المسكوكات البيزنطية؛ الا أن " ووكر" استعمل هذا المصطلح، إشارةً إلى سلاسل أخرى مختلفة، مثل: "العربية اللاتينية"، و"العربية البهلوية"، والى تلك التي ضُربت في مصر على الطراز البيزنطي، علما بأن تلك السلاسل ضُربت في فترات زمنية مختلفة، وكتبت بلغات مختلفة. ولهذا السبب ، تبنّى العلماء، حديثاً، تسميةً بديلة، لتحل مكان المصطلح السابق، هي: "مسكوكات ما قبل الإصلاح النقدي".

ب- ان تقسيم (ووكر) مبنياً على نوع المعدن واللغة والطراز. وكانت النتيجة أن هذه التقسيمات لم تعكس لنا التطور الحقيقي لتلك المسكوكات، ولم تظهره، بالنسبة إلى الزمان والمكان. غير أن الباحث تجنّب هذا الاسلوب في التقسيم، ودرس المسكوكات النحاسية، لكل جند - وهذا مدار البحث في الكتاب - اذ عدّه وحدة متميزة عن الأجناد الأخرى، ويقع تحت سيطرةٍ إدارية، كانت مسؤولة عن إصدارات مسكوكاتها النحاسية.

ج -رتّب ووكر، أسماء مدن الضرب، الف بائياً؛ الأمر الذي لم يعكس حقيقة علاقة المدن بعضها ببعض، ومضمونها التاريخي. والحقيقة، أن ووكر لاحظ أن الترتيب الجغرافي لمدن الضرب هو الأفضل؛ ولكنه لم يتبع هذه الطريقة، خوفاً من اختلاف الآراء حول دقة الترتيب والتقسيمات الجغرافية؛ إذ إنه لم يكن، آنذاك، قد صدرت كتب أو دراسات جغرافية مترجمة، حول الحدود الجغرافية للأجناد. مثلاً: وضع مدينة عمان، ضمن جند فلسطين؛ وهي في الحقيقة ضمن جند دمشق (ص ٣٥).

لم يكتف المؤلف، أن ترجم عنوان الكتاب وأبوابه وفصوله، إلى اللغة الإنجليزية، لمساعدة الباحثين والقارئين الذين لا يحسنون العربية، للوقوف على ما يحوي الكتاب من فصول ومعلومات، بل تولى، كذلك، ترجمة جزء مهم من الفصل الثالث -الباب الثاني- إلى الإنجليزية (٤٧٧-٤٨٧) وأعطاه عنواناً: "معاني الكلمات غير الدينية التي وردت على المسكوكات النقدية قبل الإصلاح وبعده".

في هذا الفصل، استطاع المؤلف، ان يقرأ، بشكل سليم ودقيق، ويصوّب بعض الكلمات، التي سبق أن قرأها علماء آخرون، منها: كلمة " بعض " التي رسمها ووكر رسماً، وكذلك كلمة " يبّث" او " ثبت" وكلمة " يلذ" و " جاز هذا" و " الدرير" او " الدابر" او " الداثر" وكلمة " الحق"، كذلك كلمة " قِطري" التي قرأها العلماء وكأنها تخص القُطر كله، أو كما ادّعى بعضهم أنها "لقُطْرِيّ بن الفجاءة" إلاّ أن الباحث أثبت عدم وصول قطري بن الفجاءة لبلاد الشام. وخلص المؤلف إلى: أن كلمة قِطري (بكسر القاف)، والتي وردت في القرآن الكريم، إنما تعني النحاس(وبطبيعة الحال مسكوكة نحاسية). كما ناقش المؤلف كلمة "مقسم" او "مقاسم"، وهي النصيب أو الحصّة من النقد، في حالة البحث في مجال المسكوكات.

قلنا إن المؤلف قد قسّم الكتاب إلى أربعة أبواب رئيسية، وكل باب يتكوّن من فصول مستقلة عن بعضها، ولكنها مترابطة بعلاقة وثيقة بغيرهام من الفصول في الأبواب الأخرى، في إطار تاريخي لمنطقة بلاد الشام، في القرن السابع للميلاد.

في الباب الاول استعرض المؤلف التحولات التاريخية الكبيرة، التي وقعت في منطقة الشرق الأدنى، خلال القرن السابع الميلادي. وإدراكاً منه، فقد ذكر الخلفية التاريخية للإمبراطورية البيزنطية والعلاقات العربية البيزنطية، ووصف النمّيات البيزنطية كونها النماذج الاولى، التي اقتبس منها العرب المسلمون نماذجهم الذهبية والنحاسية.

اما الباب الثاني، فكان عن نشأة وتطور المسكوكات العربية الإسلامية في بلاد الشام، فجرى التعريف بأصولها وطرزها، وشرح مشكلة الوجه والظهر للمسكوكات، وكتب كذلك عن نظام القياس وعلاقته بالنظام البيزنطي، وأشار إلى الفئات النقدية في تلك الفترة، وسّجل أسماء مدن وأماكن الضرب، وبحث "السنج الزجاجية" واستخداماتها، كما ذكر النظريات والأفكار حول التسلسل التاريخي لإصدارات ما قبل الإصلاح النقدي " النحاسية " لبلاد الشام.

كما قام الباحث بالتمييز، بين النقود النحاسية لأجناد الشام، والنقود النحاسية لمصر وشمالي أفريقيا.

وجميل ما جاء عن المسكوكات الإسلامية من: أنها غنية جداً بالمعلومات، بسبب ما كُتب فيها من مأثورات. وبذلك، يصح قول العالم الإنجليزي لين بول (L.POOLE): "إن المسكوكات الإسلامية تصنع التاريخ، أكثر مما تستذكره" (ص. ٢٨). هذا وتتسع مساحة الدينار الإسلامي والدرهم الإسلامي، لأكثر من خمسين كلمة، على الوجهين. كما حمل الكثير من المسكوكات الإسلامية تاريخاً وأسماء مدن؛ وفي هذا دلالة على حُكم تلك المدينة وتبعيتها، أو تاريخ فتحها وإلحاقها بالدولة ومعرفة مدى امتدادها. ويشير الباحث مايلز (G. MILES) إلى ذلك بقوله: "لقد قدمت النميات الإسلامية إلى التاريخ الإسلامي، خدمات جليلة، تفوق ما قدمه إليها أي فرع من فروع المعرفة الأخرى " (ص. ٢٨). وغني عن القول، أن المسكوكات من شارات الخلافة.

أما الباب الثالث (الصفحات: ١٥٣ – ٢٠٥)، ففيه ذكر مفصل لما يجري من أعمال في دار الضرب نفسها، بدءاً بصهر المعادن وخلطها، ثم صناعة الأقراص ووسائل نقش القوالب التي تُضرب بها النقود. كما يتتبع الباحث الأخطاء، التي تحدث في مراحل الصناعة، وتساعد الباحثين على تتبع التقنية والأسلوب المتبعين في الصناعة والإنتاج. هذا وسجل الباحث في الباب الثالث صوراً، تفّسر لنا مجريات الأمور في دار الضرب، مثل: مسألة "التهجين"؛ أي التزاوج الخاطىء بين القوالب، وخير مثال على ذلك: الفلس (الرقم ١٩، ص ١٩٢)، الذي يحمل أحد وجهيه اسم "دمشق" والآخر اسم "قنسرين" (انظر ص ١٧٥ – ١٨٠). كما بحث المؤلف في التقليد وبواعثه، وفرّق بين مصطلح التقليد أو المحاكاة والزيوف. وأشار المؤلف إلى "النقاط السرية"، وعلَّل أسباب وجودها في المسكوكات.

لا شك، أن الباب الثالث هو من أمتع أبواب الكتاب، فإضافة إلى ما فيه من جهد وصور توضيحية ونماذج لمسكوكات تحمل هفوات، فقد استخدم الباحث النقود ذاتها، ودرسها ليخرج باستنتاج طريقة صناعةالنقود النحاسية الأموية، وميّز بين ما هو مصنوع بطريقةالضرب أو السبك. كما أشار إلى أنه نتيجة كراهية الإسلام للتصوير والنحت، لم يترك لنا الفنانون المسلمون صوراً لدور الضرب أو أدوات صناعة النقود. ولهذا، كان لا بدّ من الرجوع إلى المسكوكات ذاتها، لتكون هي المرشد لنا إلى معرفة طريقة صناعتها. وفي هذا الباب، كذلك، عرّف الباحث معنى "رسم الإصدار" وأسماء القائمين على كل مرحلة من مراحل الصناعة، مثل: اختصاصيي صهر المعادن، وأولئك الذين يصبون الألواح المعدنية ويطرقونها ويقصونها أقراصاً مناسبة. ثم يذكر أن هناك عمالا يتولون تسخين الأقراص ووضعها بين القوالب، ليتولى آخرون غيرهم ضربها. كما يشير إلى مسؤول وزن المعادن والى المراقب المسؤول عن جميع هذه العمليات الخاصة بإنتاج النقود. ثم يذكر كيفية حفظ الأدوات، وخزنها، وختمها، والتحفظ عليها إلى اليوم التالي من الإنتاج. ويذكر الباحث كيف كان مسؤول دار الضرب، يستخدم نظام الختم على أيدي الطبّاعين للتحفظ عليهم؛ كي لا يقوموا بعمليات غير قانونية. وكان العامل الاموي الحجاج بن يوسف الثقفي، أول من استخدم هذا الاسلوب.

ما الباب الرابع والاخير : فقد شمل نُّميات أموية، لم ترد في مصنّف ووكر المذكور سابقا. ومما يجذب النظر إلى

الموضوع، أن جميع المسكوكات المنشورة هي من مجموعات الباحث نفسه، التي قام بجمعها على مدى اكثر من ثلاثين عاماً؛ ومن ضمنها، مسكوكات أموية مصنوعة من الرصاص، تُنشر لأول مرّة، إضافة إلى مسكوكات وأوزان فريدة، حيث سُجّل على إحداها، ما يلي:

بسم الله ضرب/ على يدي حبيب بن د / ينار سنة اربع / ومئة واف / ثلث اواق (انظر ص ٢١٥ – ٢٢٠).

يمتاز هذا الوزن، بأنه أعيد نقشه على وزن بيزنطي، بيظهر على أحد وجهيه القيمة بالحروف البيزنطية، مطعّمةً بالفضة (ص ٢٢٠). وهذا الوزن ثالث وزن بيزنطي معروف، لدى علماء النميّات، أعيد نقشه بالعربية.

كذلك تطرقت الدراسة، إلى وجود أختام رصاصية، تحمل اسم، حُلاحل / ارض / الأردن؛ وآخر يحمل الصيغة نفسها، ولكنه يحمل اسم فلسطين بدلاً من الأردن (ص ٢٣٠-٢٣١). ويعرّف البستاني، كلمة حُلاحل، بأنها تعني: السيد الشجاع، أو الضخم الكثير المروءة، أو الرزين في ثخانة.

ومن الملاحظ، أنه لم ترد كلمة " أرض" أو "جند"، في المسكوكات الصادرة عن أجناد بلاد الشام، علماً بأن أمر إصدار هذه المسكوكات كان منوطاً بأمراء تلك الأجناد. كما لم ترد هاتان الكلمتان في مسكوكات المعادن الأخرى. والإصطخري (من منتصف القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي) هو الجغرافي الوحيد، الذي استخدم كلمة أرض، في كتابه "المسالك والممالك"، عندما كتب عن أرض الشام وشبه الجزيرة العربية.

أما بقيّة الجغرافيين، فقد استخدموا كلمة الشام مجرّدة، أو ذكروا قبلها كلمة ديار، أو عَدَّدُوا أجنادها.

كما ان الباحث نشر طبعة خاتم من الرصاص، يحمل اسم " عبد الملك" أمير المؤمنين، ويسبقه "عبد الله". ومن الملاحظ، أن كلمة "عبدالله" كانت، أحياناً، تسبق كلمة رسول الله أو أسماء بعض الخلفاء: مثل معاوية، وعبد الملك، والوليد؛ ولم تظهر هذه الكلمة إطلاقاً، في نقود الولاة، أو تسبق أسماءهم، في الفترة الأموية.

كما أن كلمة "عبد الله" ظهرت في فِلْسٍ، ضربه الوليد بن عبد الملك، في دمشق، سنة ٨٧ هـ (ووكر ص: ٢٥٣) . ومن ذلك، استخلص الباحث، أن هذه العبارة كانت خاصّة بالخلفاء، وتسبق أسماءهم؛ للدلالة على الخضوع لله، وأن الخليفة قصد الإشارة إلى نفسه، بأنه إنما هو عبد مأمور، يعمل بمشيئة الله.

يذكر المؤلف ملاحظة دقيقة، تتعلق باستمرار استيراد المسكوكات البيزنطية، حتى عام ٦٥٨ م، وذلك حدث، بعد أن أُقفلت دار الضرب، في أنطاكية سنة ٦١٠ م؛ وكانت هي دار الضرب الوحيدة، التي تزود المنطقة بجزء من حاجاتها من الفئات الصغيرة من المسكوكات (انظر ص ٣٧).

يعلل علماء النميّات ذلك، بأن البيزنطيين كانوا يأملون باسترداد سورية، أو على الأقل استرداد شمالي البلاد السوريه. وقد جرى إثبات استمرار تدفق المسكوكات النحاسية، من بيزنطة إلى بلاد الشام، من طريق دراسة الكنوز والدفائن.

وأضاف المؤلف فصلاً جديداً، ذكر فيه الكلمات الدينية الموجودة في المسكوكات المضروبة، على الطراز العربي البيزنطي، التي حملت كلمات مختلفة، مثل : "محمد" و"الأمير " و" سعيد". وقد فَصَل المؤلف هذه المسكوكات، عن تلك التي حملت مأثورة " الوفاء لله " (انظر الصور، ص ٢٨٤-٢٨٧). لا بد من تأكيد الأسلوب الذي اتبعه المؤلف، إذ إنه قد صَنَّفَ المسكوكات ورتبها، بحسب الأجناد والمدن التابعة لها، بالاسلوب نفسه، الذي طالب به بيتس (M. BATES).

لقد عقد المؤلف مقارنه بين المسكوكات النحاسية، لبلاد الشام، وتلك التي ضُربت في مصر وشمال أفريقيا والأندلس، بهدف التمييز بينها؛ لأن ذلك لم يكن معروفا ومتيسراً، في السابق. والكتاب حافل بنُّميات جديدة، منها وزن يحمل اسم "الحجاج بن يوسف" (ت ٩٦ هـ – ٧١٤م) تحت بند الإضافات الرقم ٤٥ ، الذي ينص على: الوجه: بسم الله امر/ الامير الحجاج بن/ يوسف بالو/فا هذا ميزن ستة. ويحمل الظهر كلمة " وافيه"، أعلاها ٣ نقط، وأسفلها ٣ نقط، للدلالة على المقدار (ص ٤٦٩) .

وتجدر الإشارة إلى فلسٍ، يحمل كلمة "واف"، وهو من ضرب الأردن. ولأول مرّةٍ ، يظهر فلس للأردن، يحمل كلمة "واف" (انظر ص ٤٧٥، الرقم ٤٥٣ أ). كما نشر في (ص ٤٧٤) فلساً عربياً بيزنطياً، يظهر في وجهه، لأول مرّة، إمبراطوران جالسان، والحروف" (ΔAM) ،اختصاراً لكلمة دمشق باليونانية. وفي (ص: ٣٦٠) نشر الباحث فلساً ضُرب بدمشق، يحمل: عبدالله سليمن. . . وهذا أول فلس معروف، لدى الباحثين يحمل اسم سليمان(ص ٣٦٠، الرقم ٣٩٧).

تمت إضافة جديدة (ص ٣٦١، الرقم ٣٩٨) لنقود دمشق؛ اذ سجّل الباحث فلساً، يحمل تاريخ خمس وثمانين، داخل إكليل من الغار، علماً بأن التاريخ المعروف لدينا، هو اثنان وثمانون. كما سجل المؤلف أسماء مدن جديدة، لم ترد في مصنف "ووكر"، مثل: قيسارية، واذرعات، وبصرى. وصوّبَ قراءة اسم مدينة "تنوخ"، التي قرأها "ووكر" سروج.

وأخيراً، لا بد من الإشارة إلى أن الباحث استطاع أن يُفَسِّر مغزى ما ذكره المقريزي: "وضرب معاوية، أيضاً، دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً، فوقع منها دينار رديء في يد شيخ من الجند، فجاء به إلى معاوية، وقال: يا معاوية، إنا وجدنا ضربك شر ضرب. فقال له معاوية: "لأحرمنك عطاءك، ولأكسونك القطيفة". يشير هذا إلى دينار رديء (زائف؟)، وقع في يد شيخ من الجند، وهذا يعني، أن خسارة كبيرة لحقت به، فجاء معاوية شاكياً؛ إلا أن معاوية، المعروف بحكمته ودهائه، أخبره أنه سيحرمه العطاء، لكنه سيكسينّه القطيفة. والذي يُمنح القطيفة، يأخذ ألفين في العطاء. وهكذا، استطاع معاوية، بحكمته، أن يُرضي ذلك الشيخ ويسكته.

وبعد، فالكتاب هو باكورة إصدارات "متحف البنك الأهلي الأردني للنُّميات"، جاء نشره، دليلاً على الدور الريادي للبنك الأهلي في الإسهام في توثيق الحضارة الإنسانية ونشرها. هذا وقد قدّم للكتاب، معالي الدكتور رجائي المعشر رئيس أمناء متحف البنك وراعي المتحف.

والكتاب قد شكّل أطروحة دكتوراه في العلوم الانسانية، للمؤلف د. نايف قسوس، وهو صاحب بحوث مميزة أخرى، نذكر منها: "مسكوكات الأمويين في بلاد الشام" الصادر في عمان عام ١٩٩٨م.

صالح خلف الحمارنه - قسم الآثار - كلية الآداب - الجامعة الأردنية - ص.ب ١٣٨١٣ - عمان - الأردن.